

ميثافيزيقيا المعاناة

جيانى فاتيما

ترجمة: وليم العوطة

المصدر: [/https://www.journal-psychoanalysis.eu/the-metaphysics-of-suffering](https://www.journal-psychoanalysis.eu/the-metaphysics-of-suffering)



خلاصة

ينتقد الكاتب التقليد الغربي الطويل في تمجيد الألم الجسدي والذهني بوصفه وسيلة مفضلة في تعلم الحقائق الأساسية. تشكل هذه المثلثة [الأمثلة] للألم والأسى، وللزهد عامةً، جزءاً أساسياً من الميثافيزيقيا الغربية، وبوصفها كذلك فقد ألفت بأثرها على الطب الغربي والحقول الأخرى، بما فيها التحليل النفسي. يمكن أيضاً توسيع نقد هايدجر للميثافيزيقيا الغربية ليطل أيديولوجيتنا الحالية في الإنكار، وبمعارضتها يضع الكاتب قبول المرء بتاريخته الجذرية.

هل صحيحٌ أنّ المرء يتعرّف أصدقاءه (نوعًا ما) في أوقات المعاناة؟ هذا، لعمري، رأيٌ شائعٌ جدًّا، وتعبيرٌ يُضرب به المثلُّ عن حكمةٍ شعبية، كما يلخّص جيّدًا الكثير من الأفكار الميتافيزيقية عن التوجّع *dolore* [الألم، والحزن]، والتي، وتحديدًا بقدر ما هي ميتافيزيقية، لا فقط بالمعنى الوصفيّ ولكن أيضًا بمعنى التخفيض التقييبي الذي ينسبه هايدجر لها، تستحقّ أن يُعاد التفكير بها و، ربّما، أن تُحرّف، وتُتجاوز *verwunden*، كحال الميتافيزيقيا نفسها. إذا فكّرنا بذلك، قد نقول إنّ المعاناة هي جوهر الميتافيزيقيا بحدّ ذاته، وأن لا ميتافيزيقيا من دون معاناة.

التعلّم بالمعاناة؟

لهذه العبارة معانٍ عديدة. لماذا يتعرّف المرءُ أصدقاءه الحقيقيين في أوقات المعاناة؟ من الواضح أنّه لو وُجِدَت حقيقةٌ ما لهذه الأطروحة فستكمن في الافتراض بأننا نعيش في عالمٍ أين الظهور والواقع الأصيل متمايزان، وحيث يكون الألم هو ما يتيح لنا أن نعبر "من هنا إلى هناك"، على منوال العبارة الأفلاطونية. يفضّل التقليدُ مصطلح *askesis* – الزهد – السموّ الزهديّ – على مصطلح المعاناة، ولكنّ جوهرهما، كما يبدو لي، واحدٌ. الزهدُ هو، وقبل كلّ شيء وفق المعنى الذي اكتسبته الكلمة مع المسيحية، معاناةُ الإنكارِ الذي يلزم المرء تحمّلها من أجل بلوغ الفضيلة؛ وقد أضفى القدماء على هذه الكلمة معنى التمرينات الشبيهة بتلك الرياضية تقريبيًا، ولكنّ المسيحية أصبغت عليها لاحقًا مضمونًا أخلاقيًا أشدّ كثافةً، ومتى ارتبط بفداء المسيح، كان تكفيريًا وتعوضيًا.

على أيّ حال، حتّى في أحاديثنا اليومية الأكثر ابتذالًا، يبدو واضحًا أنّ من "عانى كثيرًا" يستحقّ احترامًا أكبر ممّن استمتع كثيرًا. يكشف شعار الحكمة الكلاسيكية المأساوية "تعلّم بالمعاناة" أنّ كلّ التقدير الايجابيّ للألم ليس مجرد شأنٍ مسيحيّ، لدرجة أنّه، وبقدر ما يمكن للمرء أن يثور على التعصّب الميتافيزيقيّ الذي يتضمّنُه هذا التثمين بالفعل، يبدو صعبًا عليه أن يحرّر نفسه منه كليًا. تمامًا كما في حالة "الميتافيزيقيا" بالمصطلحات الهايدجرية. بالنسبة إلى هايدجر، لا يمكن التخلّي عن الميتافيزيقيا مثل قطعةٍ من الملابس

المهملة، أو مثل خطأ جرى تعرّفه وتبيده أخيراً، ذلك لأنّ الميتافيزيقيا هي الشرط البدئي لتفعل تفكيرنا بحدّ ذاته، وهي تحدّد البنية نفسها للغة التي نستخدمها لتحرير أنفسنا من تلك الميتافيزيقيا ذاتها.

على الأرجح، إنّ الديالكتيك الهيغلي، وفيه تكون التجربة "سلبية" دائماً طالما تدفعنا إلى الصّدام مع ما لا يكون كما نريده أن يكون أو توقّعنا أن يكون، هو نقطة الوصول القصوى للميتافيزيقيا الغربية عن التوجّع [المعاناة].

ميتافيزيقيا تكشف عن نفسها عبر الألم والمعاناة بوصفها، في المقام الأول، افتداءً معزّيّاً، وإثباتاً أعلى لإيجابية "الواقع" حتّى ضدّ طريقتنا في إدراكه. لا تشير واقعة أنّنا نعاني إلى وجود أمرٍ "خاطئ" في الكينونة، بل فقط إلى كوننا مخطئين في اعتبارنا الكينونة على هذا النحو. إذا كان على المرء أن يعترض على أنّ حتّى واقعة كوننا مخطئين في اعتبار المعاناة شيئاً خاطئاً هو بالتحديد علامة على أنّه يوجد في الكينونة، مع ذلك، خطأً – خطأنا الخاصّ - فسينتهي المطاف بالمرء إلى الوصول لعقيدة الخطيئة الأصلية، ومن ثمّ، ومرةً أخرى، فكرة ذنبٍ بإمكاننا إصلاحه ويجب علينا فعل ذلك من أجل أن نعيد تأسيس أنفسنا في حقيقة الكينونة.

ذهنية "المعاناة" هذه أثّرت في الطبّ

هل أثّرت هذه التجريدات شغف الفلاسفة واللاهوتيين فقط؟ نعم، ولا. تلخّص هذه التجريدات وتشرطُ العديد من الأساليب التطبيقية – وكذلك الطّبية – لمعالجة الألم، في كلا العلاقات المؤسّساتية والخاصّة. يعرف كلُّ من خضع لعملية جراحية في الثلاثين سنة الماضية في إيطاليا مثلاً، مدى نفورِ الراهبات\الممرضات من إعطاء قطرة واحدة من المسكّنات في الليلة الأولى التالية للعملية الجراحية. بالتأكيد، توفّرت حصافةٌ بسبب المعرفة المحدودة بعلاج الألم، ولكنّ الحدود هذه جرى تجاوزها في إيطاليا بوتيرة أبطأ بفعل ذهنية "المعاناة" تلك، والتي تغلّغت حتّى في أكثر العقول علمانيةً.

حتّى اليوم، وليس في الأطر العلاجية الجسدية البحتة، ما زلنا نواجه المواقف ذاتها. إذا كانت العلاجات الدوائية المكافحة للاكتئاب والأعراض النفسية والنفسجسدية الأخرى قد

جرى تطويرها، فلماذا يستمر اللجوء إلى العيادات التحليلية النفسية؟ لأنه حتى أطروحة أنصار التحليل النفسي، وإن كانت مقنعة، فإنها تكون مشروطة دائماً بتحيّزٍ زهديّ-ميتافيزيقيّ: فقط تلك العملية المؤلمة (والطويلة والمكلفة) التي تتطوّر في العلاقة التحليلية يمكنها فعلاً تحرير الذات، واكتشاف الأسباب العميقة، والوعد بـ"شفاءٍ" أكثر استقراراً. هذا الموقف المطبّق في علاج الإدمان على المخدرات، وهو في إيطاليا يُنَاطُ بمعالجين ذوي توجهات دينية، يؤدّي إلى بناء إدمانٍ نفسيّ جديد لا يقوم سوى بالحلول محلّ إدمان المخدرات السابق (ولم يسبق أبداً للتماهي القديم للدين مع الأفيون أن كان حقيقياً بالنسبة للمدمنين كما هو الحال مع كل هذه الجماعات الدينية الكاريزماتية والعنيفة).

كلّ ما سبق، وأكثر، يخطر على البال عندما نسعى للتفلسف حول المعاناة. ولكن، وبعد أن أثبتت، أو على الأقل اعتُمد على نحوٍ فرضيّ، أنه توجد طريقة ميتافيزيقية لاعتبار الألم والمعاناة، وأننا مشبّعين بها عميقاً، في كلّ من ذهنياتنا الفردية ومؤسّساتنا وعاداتنا الاجتماعية، ما الذي يعنيه أن نحزّر أنفسنا منها [أي الطريقة] عن طريق ذلك التحريف\الالتواء وهو، ومما تعلمانه من هايدجر (ولكن ربّما من نيتشه وشوبنهاور حتّى)، الطريقة الوحيدة التي نأمل بها أن نصرّف فورتنا revolt؟

درسُ هايدجر

ما "لا يعمل" في الميتافيزيقيا من منظورِ هايدجري هو فكرة وجودِ نظامٍ مستقرّ في صميم الأشياء، بنية أزلية ضرورية (ومن ثمّ عقلانية بنفسها) مهمّتنا أن نعرفها ونفترض أنّها القاعدة (ولكن حتّى هذا الأمر بالكاد يصمد: فإذا كانت واقعةً ضروريةً، لماذا إذاً تكون قاعدة؟ وقد سمّي ذلك أيضاً، وعلى نحوٍ غير ملائمٍ، "قانون هيوم": لا يمكن من واقعةٍ ما استخراج قاعدةٍ، فهذه، ببساطة، لا معنى لها). بالنسبة إلى هايدجر في [كتابه] "الكيونونة والزمن"، ينطوي التفكيرُ بطريقةٍ "موضوعاتية" بالكيونونة الحقيقية على (أ) أنّ تاريخية الوجود الانسانيّ "لا" ينبغي (ب) على نحوٍ أصيل أن تعني خروجاً من هذه التاريخانية، وأن تمتثل لنظامٍ عقلائيّ ضروريّ؛ (ج) ومن ثمّ أن تميل إلى تخطيط مجتمعيّ معقّلٍ ينفصل عن

الشروط الفردية-وهو مجتمع أسماء أدورنو حينها "التنظيم الشامل"، وصوره [تشارلي] تشابلن في [فيلم] "الأزمة الحديثة". هذه هي الموضوعات الوجودية والطليعية لبدايات القرن العشرين التي ألهمت هايدجر، والتي شرّعت، لديه قبل أي مفكر آخر، الجدل ضد الميتافيزيقيا.

التاريخانية، أي انفتاح الوجود البشريّ وتعذّر اختزاله إلى بنية أزلية لكيونونة حقيقية (Sein) لأنها ثابتة، تعني، ورغم ذلك، الفناء. هكذا وبالمختصر: قد يتطلّب اعتباراً غير ميتافيزيقيّ للمعاناة اعتباراً غير ميتافيزيقيّ للموت. هذا ما سعى هايدجر إلى استكمالها حين وضع، في عمله الصادر عام 1972، وفي محور عقيدته الخاصة فكرة "الكيونونة من أجل الموت"، والترقبّ المقرّر لموت المرء الخاصّ كمفتاح للوجود الأصيل. طالما أنّ العالم يقدّم نفسه كعالمٍ بعين الكيونونة البشرية فقط، في "مشروعه المقذوف" (وهذا مكسبٌ كانطيّ بالفعل)، وطالما هذا المشروع متناهيّ بالتحديد، إذ يولد ويموت، فعلى المرء أن يفكر بأنّ الكيونونة ليست بنيةً أزليةً معطاةً لمرة واحدةٍ إلى الأبد، ومتموضعة قبل الذهن الذي يمكنه، عبر الزهد، أن يراها؛ بل، بالأحرى، إنّه حدثٌ يحصل على نحوٍ تاريخيّ.

في منظورٍ كهذا، المعاناة والموت – وهما مصطلحان يمكن النظر إليهما على نحوٍ معقولٍ كمترادفين تقريباً: فالمرء يعاني دوماً من الفناء، ولأجله؛ وحتى الاعتلال الجسديّ يكون علامةً على الفناء، ونتيجةً وعارضاً له – يكونان منيعين وغير قابلين للاسترداد. لا يمكن تفسيرهما أو تبريرهما، لأنّهما لا يوصلان إلى أيّ حقيقةٍ خالصة. على العكس من ذلك، هما ما يحرراننا من العبودية والضعيفة أمام كلّ حقيقةٍ خالصةٍ (قانون الكيونونة، الربّ كخالقٍ أو كحاكمٍ، القدر الطالح... الخ). فكّروا بجواب يسوع بخصوص الصبيّ الذي وُلد أعمى: "لأ هذا أخطأً ولا أبواه، لكنّ لتظهر أعمالُ الله فيه". وهذا ما يجب أن يُفهم بمعنى الاحتمال المطلق، إذ لا يوجد سببٌ، ولا حتى إرادة إلهية غامضة للمعاناة.

أبعد من ميتافيزيقيا المعاناة

هكذا، تركزُ الأسسُ إلى مفهومٍ مزدوجٍ غير ميتافيزيقيٍّ وإلى علاجٍ للمعاناة. من ناحية أولى ، لا كرامة للمعاناة، ولا تستحقُّ احترامًا بما هي كذلك، فهي وببساطةٍ ما يحصل، ولأنَّها على هذا النحو تكون دائمًا حادثةً غير مرغوبةٍ (على عكس تلك الحوادث التي ننتظرها ونرغبها، مثل اللذة والنجاح.. إلخ)، وحادثًا محضًا، بكلِّ ما للكلمة من معنى، [أي] الحدثُ المطلق schlechthin، والمحضُ والبسيط. (كتب سارتر بعض الصفحات الجميلة عن الموت مفهومًا كحدثٍ بلا معنى، معتقدًا، وربَّما على نحوٍ خاطيءٍ، أنَّه هكذا ينتقد هايدجر). يوجد التاريخ وينمو طالما الموت لم يُقبل، ومن ثمَّ كذلك طالما يفلح المرء في الحدِّ من سلطة المعاناة. لا يوجد بمواجهة المعاناة ما يمكن عقلائيًّا القيام به سوى محاولة إقصائها.

من ناحيةٍ أخرى، تظلُّ كلُّ أفكارنا التقليدية عن المعاناة، بمعنى محوَّر، تبدأ بتلك الفكرة التي تربطها بالصدقة. المعاناة الوحيدة التي تستحق الاحترام هي معاناة الآخر، وعليه، موت الآخر هذا. هاهنا ربَّما تكمن حقيقة المثل الشعبيِّ عن المعاناة والأصدقاء، ولكن أيضًا حقيقة "التعلُّم بالألم" pathei mathos. في المعاناة والموت، وعبر الخوف الذي يثيرانه يتعرَّف المرء ما يعاكس تناهيه الخاصِّ؛ ليس لأننا نواجه كائنًا متعالياً وجبَّارًا على نحوٍ أساسيٍّ، وعنيفًا يقف قبالتنا مثل جدارٍ من الغموض، فارضًا نفسه كسلطةٍ علينا القبول بها (دائمًا ما يظلُّ الواقع للكثيرين ذلك الذي "يصطدم به المرء") من دون ادعاء فهمه. بالأحرى، التناهي هو الوجود مع الآخرين، واكتشافٍ آخريٍّ لا يمكننا تخطئها.

لذا، حتَّى وإن لم يبدُ الأمرُ صريحًا في النصِّ، فإنَّ القرار المتوقَّع للموت الذي يفتح على وجودٍ أصيلٍ، على ما قال هايدجر في الكينونة والزمن، ليس سوى قبول المرء لتاريخيته الجذرية الخاصة: نشأنا من أمواتٍ وسنترك مكاننا لأمواتٍ آخرين، وتكون مسؤوليتنا – مستجيبيتنا responsiveness موجهة نحوهم؛ [إذ] يلزمنا أن نستجيب للرسائل والقيم التي تركها لنا أسلافنا أو من هم معنا في هذا العالم، ويجب علينا أن نستجيب لهؤلاء الذي يخلفوننا. إنَّ الصفحات الموحية والملغزة جدًا المستقاة من تقاطعات الغابة Holzwege (1950)، والمخصَّصة لـ "شذرة أناكسيمندر" - "يجب أن تدفع الأشياء الغرامة على إجحافها، وعلى بقائها كائنة بدل أن تتيح للآخرين أن يكونوا، بأن تترك لهم مطرحها وفقًا لنظام الزمن" -

يجب ربما أن تُقرأ تحديداً بهذا المعنى، بالرغم من أننا نسمح لأنفسنا بحريّة تأويليةٍ ما، تجاه كلاً من أناكسيمندر وهايدجر نفسه. ليست الكينونة غير ضربٍ من أخذٍ مطرَحٍ ودفع الغرامة. (هل هي زهيدةٌ جداً؟ ولكن حقاً، ولنستحضر جاليليو، ألا يكون التفكير بالأجرام السماوية بوصفها صخوراً ثابتةً تفتقر إلى الحياة والموت، وبلا أي مستقبلٍ، أفضلَ أو أكثر توقيراً من تصوّرها بالمقابل كأماكن تشبه أرضنا حيث يولد المرء ويموت ولأيّ كينونة؟)

هكذا، من الصحيح أيضاً أنّه في المعاناة يتعرّف المرء الصديق، وأنّ المعاناة "تكمّلنا"، ويتعلّم المرء عبرها، وأنّ من يعاني أو من عانى يستحق الاحترام قبل كلّ شيءٍ من أجل معاناته هذه. للكفاح ضدّ المعاناة، أو، وهو الأمر عينه، للبحث عن السعادة، حدٌّ واحدٌ فقط: تحديداً، التضامن مع الآخرين، واضطلاع المرء بتناهيه الذي يقوده إلى ألاّ يفسح بالمجال لعجرفةٍ *hybris*، ولغطرسة من "يأطلق" *absolutize* نفسه، ومن ثمّ يعرضها لكلّ التضمينات العنيفة للميتافيزيقيا. تنطوي هذه التضمينات على الضغينة في ألاّ يكون المرء غير فانٍ، وعلى الشدّة الخاصّة التي تصيبه بها أيّ معاناة. في الواقع، يمكن للمعاناة أن تظهر فقط للمرء بوصفها ما ترغب به سلطةٌ غامضةٌ وشريرةٌ ما ضده.

يوجد معنىٌ آخرٌ لقول أناكسيمندر، من وجهة نظرٍ لا تأبُ *nostalgize* رومانتيكياً إلى الإغريق ولكمّها تعي المعنى التعويضيّ للمسيحية، يجب أن يُستعاد هنا: معارضةٌ لأيّ "ذهنية معاناة" ومأساوتية *tragicism* (ممتعضة) تتفشّى في الثقافة الحالية لخيبةٍ من فشل الثورات. إنّ الغرامة المدفوعة، وفقاً لنظام الزمن، بأن يترك المرء مطرحة في العالم لهؤلاء الذين سيخلفونه، هي كلّ ما يُطلب منّا من أجل أن نكفّر عن ذنوبنا (المحتمل). أيّ تمجيدٍ آخرٍ للتوجّع وأيّ تقديسٍ للمعاناة هو مجرد ذريعة، غالباً ما تكون تسلطية صريحة، من أجل استئناف أساسٍ هو، في إطلاقيته، لا يفعل سوى أن يديم – مثل الزهد، والعقوبة، ومثل البحث عن أصالةٍ مفترضةٍ – العنف التي تكون المعاناة مظهره، وأثره وسببه.